ونائب الشام يلبغا الناصري الحروب التي جرت لهم مع منطاش . ثم حضر وقعة الناصري المذكور مع عرب نعير وغيرها من الحروب

وفي سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق تملّك الطامعون على بعض اقطاعاته واقطاع اقاربه فتوجّه الى مصر وتعرّف باينال حطب (كذا) من اعيان امراء مصر واسترجع ما خرج من الاقطاع وحصل بسفرته هذه على نفع . وجهات اقطاعه شطرٌ من اقطاع ابيه شركةً مع اخيه شرف الدين لكل منهما امريّة خمسة . فلمّا توفّي عزّ الدين ابن علاء الدين العراموني بقيت بيد شرف الدين امريّة الخمسة بكمالها وهي المباعة من علاء الدين لشرف الدين وعزّ الدين . فجعلوا خبز عزّ الدين الذي كان تلقّاهُ عن ابيه ظهير الدين مناصفةً نصف منهُ لمحمد ابن عزّ الدين وكان محمّد صغيرًا ونصف لسيف الدين ابي بكر المذكور بما فيه من جهات بيروت زيادةً على اقطاع عزّ الدين

وتزوّج سيف الدين المذكور سارة بنت شرف الدين سليمان ابن سعد الدين وهي ام ولده احمد . وتوفي احمد صغيرًا وكانت تلوح عليه ملامح النجابة وحسن الخلق وتوقّد الذهن . توفّي بعد وفاة امّه سارة وفي ايام ابيه ولم يكن لهُ ولد ذكر غيره . ثمّ تزوّج سيف الدين المذكور بزينب بنت عزّ الدين الحسين ابن بدر الدين يوسف (١١٥٧) العراموني . وكانت وفاتهُ رحمهُ الله تعالى ليلة الاربعاء السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة ثلثين وثمانمائة (١٤٢٧ م) . (ستأتي البقية)

السفر العجب الى بلاد الذهب

للاب اميل ريفو اليسوعي (تابع لما سبق)

الفصل العاشر

في نشأة نصّة بروسبر اولري وخطب وبيترس لاضف

انّ بروسبر اولري ابن اخي جون اولري الذي كانت لاسمه رنّة عظيمة على اثر حادثة نسيب كان اوّل من هاجر الى ألاسكا . وكان في بدء امره شكس الطباع لا يعمل الّا بهواهُ فكرههُ عمّهُ مفضّلًا عليه المستر نسبيًا لما شاهد فيه من الرقّة والدماثة ولين العريكة وعهد اليه بادارة مناجمه في كاليفورنية . وما طالت المدّة حتى مات جون

اولري وكان ابن اخيهِ بروسبر مسافرًا وقتئذٍ في ألاسكا فلم يكن ليستطيع ان يطالب بتركة عمهِ فضلًا عن انهُ لم يأتهِ خبر وفاتهِ الَّا بعد فوات الوقت ومضيّ المدة الطويلة

وكان انّ امرأتهُ لم تقوَ على احتمال البرد القارس في النواحي القطبيَّة فأُصيبت بمرض شديد. وفي ذاك الحين وردتهُ احدى الجرائد ناقلة خبر اكتشاف تلك الورقة الملطَّخة بالدم فتواردت الظنون على خاطرهِ لكنَّهُ لم يكن قادرًا على مفارقة امرأتهِ في حال مرضها الاخير. ثمَّ ان امرأتهُ بعد ان قاست الارجاع المبرِّحة مدَّةً من الزمان لفظت روحها فدفنها ما بين الثاوج وعاد قافلًا الى مدينة سان فرنسيسكو

وكانت الاوراق المتعلقة بمسألة نسيب وحميهِ اولري قد علاها الغبار ونسج عليها العنكبوت فلمَّا انتهى الى سان فرنسيسكو اخبرت الجرائد عن قدومهِ وقد سعى بعض السعي لمعرفة السرّ الذي اكتنف وفاة عمّهِ فلم يقدر. ومن ثمَّ سافر الى مناجم كاليفورنية التي كانت قد انتقلت اليهِ بالميراث على اثر هرب نسيب ووفاة ابنة عمّهِ جنّي اولري وبعد ان اقام بضعة ايام في سان فرنسيسكو اضطرتهُ الاشغال للذهاب الى شيكاغو

وهناك التقى بالمستَّى بيترس لاضف وكان ذلك ليلة عزمهِ على السفر ولاضف المذكور هو ذاك المسافر الذي ركب آخر الكل في الباخرة « انكون » التي سبق الكلام عليها. وبرت لهُ مع احد الركاب عند وصول الباخرة الى كلونديك مشاجرة عند السلَّم مرَّ خبرها ثم انَّهُ اتخذ من الادلَّاء الهنود من خانوهُ في الطريق ودهوروهُ في وادٍ عميق ولحسن حظهِ علق ثوبهُ قبل الوصول الى قعر الوادي بنتوء في الصخر ولولا ذلك لمات وانطفأ ذكرهُ وقد مرَّ الخبر في كيفيَّة خلاصهِ من هذه المحنة

والحاصل ان ذينك المتخاصمين في الامس بيترس لاضف وبروسبر اولري التقيا وجهًا لوجه وكان كل واحد ينظر الى الآخر متعجبًا دون ان تبدو من أحد منهما كلمة. وطال تحديق الاثنين احدهما بالآخر الى ان وقف بيترس لاضف ودنا من منقذ حياتهِ وعيناهُ كأنهما لسانان ناطقان بما تضمَّن فؤادهُ من معرفة الجميل لمن خلَّصهُ من الموت

فعندها وقف بروسبر اولري معانقًا خصمهُ ولبث الاثنان على هذه الحالة مدَّة من الزمان دون ان ينطقا بكلمة وأخيرًا بعد ان سكن ثائر العواطف قال بروسبر اولري: « اني قد انقذتك من الموت امَّا الشؤون التي جرت في شيكاغو فلنطوِ عليها كشحًا ولقد هربتَ من مبارزتي وما كنتُ لاظنّ اني التقي بك هنا. ولكن فلننسَ ما مضى »

اما بيترس لاضف فاقتصر من الجواب على كل هذا بان نظر اليهِ نظرة ابتهالٍ ثمَّ حوَّل وجههُ متأثرًا وتحركت شفتاهُ كأنهُ يريد ان يتمتم بعض كلمات فانحنى اولوي مصغيًا اليهِ ليعرف ما يقول: وكان وقتئذٍ ان الرجل صاحب البرنيطة الكبيرة قد دنا من الاثنين فنظر نظرة الغضب الى كليهما. اما بيترس لاضف فارتعشت اعضاؤهُ وقال: « احذر من..» ولم يزد على ذلك وكانت قد اخذتهُ حركات تشنُّجيَّة فلم يقوَ على الكلام وكان رافعًا يده كأنهُ يريد الدلالة بها على شيء معلوم

والتفت بروسبر اولوي فلم يرَ غير صاحب البرنيطة الكبيرة فاذا بهِ يحملق بنظرهِ اليهما فتعجَّب من ذلك لكنَّهُ لم يعبأ بهِ وكان في غضون ذلك انَّ بيترس لاضف انتعش مستردًا قوَّتهُ شيئًا بعد شيء. ثم جلس سويًا فمد بروسبر اولوي الى بطَّة مملئة شرابًا كانت في جيبهِ وناولهُ اياها. وكان صاحب البرنيطة الكبيرة يراقب ذلك كلهُ محدقًا ببصرهِ فيهما وكان لنظراتهِ تأثير قوي على لاضف بحيث كان يشعر منها باتزعاجٍ عظيم. اما بروسبر اولوي الذي كان مهتمًّا بمداواة الجريح فخطر لهُ انَّ ما اعتراهُ من تلك الحركات التشنُّجيَّة ناجم عن تأثير البرد فيهِ فانهضهُ قائلًا: « لهُ انك محتاج الى الراحة. واسعفه على المشي حتى انتهى الى صخر منفرد كان الى جانبهِ ثغرة في الارض فاقعدهُ هناك قائلًا لهُ ان يرقد لعلَّهُ يستعيد قواهُ لاسيما وان الثغرة بمنجاة من الريح والبرد

قال هذا وبسط في ذلك الغار الطبيعي قطعة من الكاوتشوك كان قد وجدها في طريقهِ لان جميع امتعتهِ كما عرفت بقيت في ساحة العراك بعد خيانة الهنود الذين استأجرهم لحمل اثقالهِ ثمَّ مدَّ فوقهُ غطاء من جلد الحيوان وترك عندهُ البطَّة ذات الشراب المنعش وابتعد عنهُ بضع خطوات متمشيًا لهُ وقادًا هنيئًا

وبينما هو متباعد ابصر صاحب البرنيطة الكثيرة الذي كان قد لحقهما عائدًا خلفهُ. وكانت قد هبَّت وقتئذٍ ريح خفيفة فبدَّدت الغيوم واثارت الشمس القطبيَّة باشعَّتها الضعيفة عند مغيبها تلك البقعة المتجمدة فكان لانعكاس انوارها على الصخور والوهاد والجبال مناظر غريبة مدهشة. فجلس بروسبر يريد الراحة غير انهُ لم يمكنهُ ان يذوق طعمها بل كان يجيل في ذهنهِ ما جرى لهُ من الحوادث فتمثَّلت لهُ تلك الهاوية العميقة وذاك الجسم الذي كان معلقًا في الفضاء. ونقط الدم التي كانت تصبغ الجسد بلونها

الاحمر القاني وتذكر العراك الذي انتشب بينهُ وبين الذين استأجرهم من الهنود لهدايتهِ الى الطريق وكيف نجا من شرّهم بوصول صاحب البرنيطة الكبيرة. وكان اولري يرتجف مرتعدًا لدى عودة هذه التذكارات المؤثرة على ذهنهِ

ثمَّ انَّهُ افتكر في هذا الرجل الغريب الشكل وجعل يقول في نفسهِ: من هو يا ترى هذا الشخص الذي شاهد فيهِ هيئة شؤم وما الداعي لنطقهِ بكلمات متقطعة دون إبانة... ولماذا صرخ بيترس لاضف عند مرآهُ تلك الصرخة المنبئة بخوف شديد... ولماذا انقطع عن الكلام لدى اقترابهِ بعد ان كان قد همَّ بكشف ضميرهِ

وتذكَّر انهُ قال لهُ حينئذٍ: « احذر من ... » دون ان يقول لهُ ممَّن ولا مما يحذر. ثم خطر لهُ انَّ لاضف اراد ان يحذّرهُ من صاحب البرنيطة الكبيرة لا بل تأكَّد عندهُ ذلك لاسيما وانَّهُ كان قد رآهُ يراقب بيترس لاضف مراقبة الغادر بينما كان مستندًا الى ذراعهِ في ذهابهِ الى النار

وبينما كان الهدوء قد نشر جناحهُ على كل شيء. وكان الهنود قد اغفوا وناموا التفت بروسبر اولري فرأى شبحًا منتصبًا ولكن ما لبث الشبح ان غاب عن بصرهِ فلم يحفل لمرآه. وبعد ان استمرَّ بضع دقائق واقفًا في المحلّ نفسهِ التمس لهُ مكانًا يرقد فيهِ واشتمل بغطاء فنام

واذ ذاك شوهد خيال رجل ينساب ما بين الصخور وهو يمشي ببطء حتى لا يشعر احد بحركتهِ. وكان يتوقَّف المرَّة بعد المرَّة ثم يستأنف السير ماشيًا وراء الصخور وما مضت بضع ثوانٍ حتى صار على مسافة خطوات يسيرة من بروسبر اولري وحينئذٍ تمدَّد على بطنهِ فوق الجليد ورفع رأسهُ قليلًا فشاهد انَّ بروسبر اولري لم يزل مستيقظًا فاتحًا عينيهِ فعاد الى الوراء وجثم لا يتحرَّك ولا يتنفَّس منتظرًا رقادهُ

وكانت الريح تنفخ في تلك الساعة بحيث لم يكن يُسمع سوى هبوبها في وسط الهدوء التام والجوّ عاد فتلبَّد بالغيوم المظلمة كانه يريد ان يزيد شقاء المحلّ شقاء

على ان بروسبر اولري ما لبث ان اغفى واختلط صوت شخيرهِ بما كان يُسمع من صوت هبوب الريح. اما صاحب البرنيطة فنهض متسلّلًا ولمَّا تأكَّد كل التأكد ان بروسبر اولري مغفٍ تسلَّل ثمَّ اخرج نصلة مرهفة الحدَّين وشهرها فوق رأس النائم يريد قتلهُ

وبينما هو يهم باغماد مديته في قلب المسكين اذ سمع صوتاً ضعيفاً ينتهره قائلاً:

ويلك يا نسيب ماذا تفعل ؟

فتوقف الضارب مندهشاً وقال:

" من هو الذي يدعوني باسمي ؟ "

— انا بيترس لاضف الذي عرفتهُ باسم « فاضل »

وفي حقيقة الامر لم يكن ذلك المنكوب الذي رأياهُ في اسوإ الحالات معلقاً على ذروة صخر فوق هوَّة فاغرة فاها لتبتلعهُ غيرَ اللبناني فاضل وكان قد بدل اسمهُ باسم بيترس لاضف ليتخلص من يد الحكومة خوفاً من نسيب يوم رماهُ بسرقة شذرات الذهب. وكان من امرهِ بعد نجاته من الموت على يد بروسير اولري انهُ رأى وجه صاحب البرنيطة الكبرى فعرفهُ للحال انَّهُ المستر نسيب بعينهِ. ولمَّا رآهُ ينظر شزراً اليهِ والى بروسير اولري فهم انهُ يضمر لهما سوءاً. فما كاد يبتعد اولري عنهُ حتى قام من مكانهِ ومشى مستنداً الى عصاتهِ ليتفقَّد امر مخلِّصهِ فرأى ذلك الشبح يترصَّدهُ فاستخفى فاضل وراء صخرة حتى يدافع عند الحاجة عن منقذهِ. ولمَّا نظر القاتل ورأى بيدهِ شفرتهُ اللامعة انتهرهُ باسمهِ كما رأينا

فقال نسيب: قد عرفتك يا « فاضل » او بالحري يا « شرّير ». وماذا تريد ؟

— اريد قياماً بسُنَّة العرفان بالجميل لن انقذ مخلِّصي من الموت الاحمر وان اقتضى الامر ان افديهُ بحياتي

فلمَّا سمع نسيب هذا الكلام خاف ان يوقظ فاضلُ بروسير اولري فيقوم الاثنان في وجههِ ولا يعود يقوى عليهما فالتجأ الى الحيلة وقال لفاضل كأنهُ ندم على ما فرَّط: « لقد احسنت صنعاً يا فاضل بصدّي عن اتيان جريمةٍ لا تأتي بنفعٍ فلندع بروسير اولري ينام عنا قدر ما يريد ولا يخفى عليك ان الهنود لشدَّة غضبهم من قتل اخوانهم لا يتنون الا مطاردتنا فاحسن شيء اذاً ان نجدَّ في السير. هذا ولا اظنك تؤثر ان تنتظر من انقذك من الموت الى ان يفيق فموتا كلاكما في هذا المضيق »

(ستأتي البقيَّة)